

تمثّل الحدث الثوري والتشكيل السردى لصُورتيّ المجاهد والحُرّكي في رواية "هموم الزمن الفلاقي" لمحمد مفلّاح

The Representation of the Revolutionary Event and the Narrative Formation of the Images of the Mujahid and the Harki in the Novel "Humum Al-Zaman Al- Fellagi" by Mohamed MEFLAH

د: حبيبة العلوي

ط.د: عبد الكريم قاب*

جامعة الجزائر ٢ أبو القاسم سعد الله (الجزائر)،

جامعة الجزائر ٢ أبو القاسم سعد الله (الجزائر)،

مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائرية

مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائرية

habiba.laloui@univ-alger ٢.dz

abdelkarim.kab@univ-alger ٢.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٥/٠٤/١٤ النشر: ٢٠٢٥/٠٦/٠٢

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠١/٢٢

ملخص:

استمر شغف الروائيين الجزائريين بالثورة التحريرية بعد الاستقلال، وراح كلٌّ يوظّفها حسب رؤيته وفهمه لهذا الحدث التاريخي، ومن بين هؤلاء يبرز اسم الروائي محمد مفلّاح الذي استهل مشواره الإبداعي ببرواية الجبل الأخضر؛ وما رواية "هموم الزمن الفلاقي" سوى إحدى فصولها. ويحاول هذا المقال تبيان طبيعة تمثّل الحدث الثوري في هذه الرواية، وكيفية تخيله؛ بنقله من رصانة التاريخي إلى مُتعة الجمالي، كما يسعى إلى الإحاطة بمرجعية الروائي التي تتمظهرُ في مقارنته لنضال الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وأذنابه من "الحُرّكي" و"القياد"؛ الذين باعوا ضمائرهم وأنفسهم للعدو الفرنسي وارتضوا العيش في ذل وهوان. في الوقت الذي آثر فيه الجزائريون -في أغليبتهم- التمسك بأرضهم والدفاع عن عرضهم إلى غاية طرد المستعمر واستعادة السيادة الوطنية. لذا سيكون من الأهمية بمكان تتبّع بناء الشخصيات والإنصات إلى أصواتها؛ المسموعة منها والخافتة، لفهم طبيعة وخلفية التشكيل السردى لصُورتيّ الثوري المقاوم والحُرّكي الخائن.

الكلمات المفتاحية: حدث ثوري؛ تمثّل؛ صورة؛ شخصية ثورية؛ حُرّكي.

Abstract :

The passion of Algerian novelists for the Liberation Revolution persisted after independence, with each author interpreting and employing it according to their vision and understanding of this historical event. This article aims to explore the nature of the representation of the revolutionary event in Mohamed Meflah's novel "Humum Al-Zaman Al- Fellagi" and how it transitions from the rigor of historical accuracy to the delight of aesthetic storytelling. The study also seeks to uncover the novelist's references as reflected in his approach to portraying the struggle of the Algerian people against French colonization and its collaborators, such as the "Harkis" and "Caïds". The majority of Algerians defended their land until the colonizer was expelled, and national sovereignty was restored. It is particularly important to trace the construction of characters and listen

to their voices to understand the nature and background of the narrative formation of the Mujahid and the Harki.

KeyWords: Revolutionary event ; Representation ; Image ; Revolutionary character ; Harki.

*عبد الكريم قاب

المقدمة:

نشأ الروائي الجزائري محمد مفلح -على غرار الكثير من أبناء جيله- على حكايات الثورة التحريرية؛ وما ارتبط بها من حقائق وأساطير، غَدَّت الذاكرة الجمعية لأجيال متعاقبة، لذلك فمن النادر أن نجد خلال الثلاثين سنة الأولى التي تَلَتْ الاستقلال قصة أو رواية لا تستدعي وقائعها. ورواية "هموم الزمن الفلاقي" -محل الدراسة- لم تَشُدَّ عن هذه القاعدة، إذ تُرَكِّز على هذا الحدث التاريخي المتمثل في الثورة التحريرية، لكن تفاصيل القصة المروية تستند إلى الخيال أكثر من الواقع، رغم أن الروائي الذي لطالما استهوتته الكتابة الواقعية واستأثرت باهتمامه يوهنا خلال السرد بواقعية حكيه؛ لِمَا تَضَمَّنَتْ من إشارات إلى أماكن وشخصيات لها وجودها في العالم الواقعي / الحقيقي، ناهيك عن إثارتها لأحداث تاريخية معروفة؛ أي أنه يستعين بالخيال لصياغة ما كان واقعا فعلا، فينسج عوالمه المتخيَّلة التي لا تُفَارِقُ التاريخ إلا لِنَعُودَ إليه. لهذا تراءى لنا أن الوصول إلى المعاني الكثيفة المتوارية خلف هذا النص سيكون أكثر يُسْرًا بالنسبة إلى قارئ متسلِّح بمادة تاريخية ووعي نقدي، لأنهما سيُمكِّنانه من فهم طبيعة المعالجة الروائية للأحداث التاريخية، ومن ثَمَّ القبض على موقف الروائي والمرجعية التي استند إليها في تخييله للحدث الثوري وتصويره للشخصيات الفاعلة فيه والمتصارعة في خِصْمِهِ. وعليه، سنحاول من خلال مقارنتنا الوصفية التحليلية الإجابة عن ثلاثة تساؤلات، وهي كالآتي: كيف تم تمثُّل الحدث الثوري في هذه الرواية؟ وكيف صوِّرت الرواية الشخصيات المتصارعة خلال الثورة؟ وهل التشكيل السردِي لصُورَتِي المجاهد/الشهيد والحزكي في هذا النص يَتَمَايَزُ عَمَّا ورثته الذاكرة الجمعية للجزائريين؟

I. ملخص الرواية:

تعود رواية "هموم الزمن الفلاقي" إلى زمن الثورة التحريرية الجزائرية، فتحكي لنا قصة شعب آمن بحريته، وتمسَّك بشخصيته المقاومة والنابهة لكل أشكال الاستعباد المسلطة عليه من قبل الاستعمار الفرنسي. قصة شعب اجتمعت عليه صنوف من القهر والظلم والجوع...، وتكالب عليه الأعداء من إخوة الأمس؛ "الحَوَنَة" الذين باعوا أرضهم وعرضهم لأسياهم المتحكمين في مصائرهم.

بطل الرواية هو حماد الفلاقي؛ رجل جزائري بسيط يعيش في إحدى أرياف مدينة غليزان، متزوج وأب لثلاثة أطفال، يكدح من أجل توفير لقمة العيش لعائلته في زمنٍ استعماريٍّ جائر، تجرّ فيه "المستعمر"، و"المعمر" و"الخائن".

يتميز حماد بشخصية قوية، لا تطاوعه على الانصياع والخضوع، ينتفض ضد المعمر "فانسا" الذي حاول إهانته، فيطرد من العمل في الحقل. لاحقاً يسافر حماد إلى المدينة باحثاً عن عمل يسدُّ به أفواها جائعة خلّفها وراءه في الريف، فيعود منها ثائراً ضد وضعه كمستعمر؛ يعيش بلا خبز ولا كرامة في الريف كما في المدينة. يتفجر بداخله يقين أن المرور إلى حياة ثانية أكثر عدلاً وأمناً وحرية لن يكون إلا عبر الالتحاق بـ"الجبل الأخضر" الذي سيوقّع شهادة ميلاده كإنسان له وجود.

في هذه الرواية تتقاطع قصص عدة لشخصيات تقاسمت "هموم الزمن الفلاقي" في صورة "سي عدة الطالب" الذي غرس فكرة الثورة في عقل حماد. "سليمان الفحام" الذي كلفته جبهة التحرير بمهمة التجنيد. الشيخ "المهدي" الرجل الذي خانته الجسد ومنعه من الالتحاق بالمجاهدين. "سعدية" -ابنة القايد وزوجة الحركي- التي تمرّدت عليهما وانتصرت لذاتها المتطلّعة للحرية، والطفل "محمد" الذي حلم بمعاينة بندقية في الجبل أكثر من إمساكه بقلم في المدرسة. يحضر الاستعمار في هذه الرواية مُثلاً برموزه: الضابط الفرنسي "جورج" المعروف لدى أهل المنطقة بـ"العين الزرقاء" والمعمر "فانسا" مع ابنه "جانو". أما الخونة فهم: القايد* "موسى الجواج"، والحركي** "جلول الكلي".

وبالنظر للشر الذي اقترفه المستعمرون وأذناهم، كانت النهاية قاسية وعنيفة جداً، إذ نال كل واحد الجزاء الذي يستحقه بينما نال "حماد الفلاقي" شرف الشهادة، أين التحق برفيق دربه "سي عدة الطالب".

II. دلالة العنوان وعلاقته بثيمة الثورة:

تُفصّل رواية "هموم الزمن الفلاقي" من البداية عن ثيمتها من خلال سؤال يتوجّه به نادل المقهى إلى "حماد الفلاقي" حول اندلاع الثورة التحريرية، إذ يقول السارد: "هزّ النادل رأسه وقال بصوت خافت: كُنْتَ في الدوار؟ فهل اندلعت الثورة هناك؟" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٥)

تتضمن هذه الفاتحة النصية إشارة مبكرة إلى الحدث الرئيس للرواية والمكان الذي تجري فيه وقائعها. أما الزمان فيرتبط ارتباطاً مباشراً بالحدث، لأن الحديث عن الثورة هو استدعاء لفترة محددة زمنياً، واتخاذها كخلفية مرجعية للأحداث. وبهذا تصبح دلالة العنوان واضحة، فالزمن الفلاقي -المقصود هنا- هو زمن الثورة، رغم أن الفلاقة*** هي: "لفظة

سلبية استعملها الفرنسيون للإشارة إلى المقاومين الجزائريين خلال حرب التحرير الوطني" (شرقي، ٢٠٠٧، صفحة ٢٦٧)، بهدف تشويه صورتهم أمام الرأي العام الفرنسي والعالمي (مرتاض، ٢٠٠١، صفحة ٦٥)، إلا أن الروائي محمد مفلح يستعملها لتكون أكثر دلالة -خاصة فيما تعلق بمعناها اللغوي- على قساوة المرحلة وصعوبتها لما عرفت من عنف ومعاناة تكبدها الجزائريون السائرون في ركب الثورة، لاسيما وأنه في خضم عزمهم على تحرير بلادهم من نير الاستعمار وجدوا أنفسهم في مواجهة المستعمر وأتباعه معا. ويتجلى هذا في قول السارد: "دروب هذا الزمن وعرة، الخنازير في كل زاوية.. كلاب فرنسا وراء الستار (...). ستتروى الأرض بالدماء.. بالهموم والأحلام ولكن الهدف واضح.. النجمة والهلال" (مفلح، ١٩٨٦، صفحة ١٠) يصف هذا المقطع المستعمرين بالخنازير؛ لكثرة فسادهم في الأرض وفظاعتهم التي تجاوزت كل وصف، مما جعل الثوار يمتقونهم ويتحسّنون الفرص لاقتناصهم وتخليص السكان المحليين من شرورهم. كما يصف أتباعهم من الخونة الجزائريين بالكلاب؛ لما يُكنّهُ هؤلاء لأسيادهم من وفاء، ولما يُظهرونه لهم من طاعة وخضوع، مع سهولة تحريضهم على إخوانهم الذين أعلنوها حربا، فعقدوا العزم على ركوب المخاطر وضحوا بأرواحهم من أجل أن يَحْيَ إنسان هذا الوطن -المقاوم الذي لم يرض يوما أن يُفرضَ عليه احتلال أو دين أو لغة. (بنعمان، ٢٠١٥، صفحة ٢٨٦) لذلك فإنّه إلى جانب الاستعمار ستكون الخيانة، أيضا همًّا من هموم الزمن الثوري الذي سيعيد الروائي محمد مفلح بناء سياقه في هذا النص الروائي.

III. تسريد الحدث الثوري بين ما يقتضيه العالم المُتَخَيَّل وما يفرضه الموقف المُتَمَثَّل:

١. تجاذبات التاريخي/الحقيقي والتخييلي/الجمالي:

نُحِيلُنا رواية "هموم الزمن الفلاقي" إلى ماضي واقعي لم يعد موجودا، ومن ثمّ لا يمكن مُعَايِنَتُهُ والتأكد منه، على اعتبار أن الثورة التحريرية هي حدث تاريخي عاشته الجزائر وانقضى زمنه، لكنه وصل إلى جيل الاستقلال عبر خطابات عدة حاولت إعادة إنتاجه، على غرار ما اضطلعت به الرواية -محل الدراسة- التي قامت بتشكيل صورة عنه، لكي تمنحه حضورا يجعله مرثيا لدى من لم يعاصره؛ فيتمثل الماضي الواقعي كما لو كان حاضرا. (العنزي، ٢٠١٧، صفحة ٧٥)

إن السارد في هذه الرواية لا يُخْبِرنا عن تاريخ الحدث أو الزمن الذي تجري فيه الوقائع، لكنه في الوقت نفسه يُشير إليه بطريقة غير مباشرة؛ قد تكون رمزية أو مجازية. إذ يبدأ الحدث بترقب بطل الرواية "حماد الفلاقي" انفجار قبلة وَضَعَهَا هو بنفسه داخل حانة تقع وسط مدينة غليزان، يقول السارد: "قرر حماد الفلاقي أن يمكث هنا، على هذا الكرسي

الحشبي القديم، وفي هذا المقهى المكتظ بالكادحين والمكسودين، حتى يسمع دوي الانفجار (...). بعد دقائق قليلة سيموتون .. الخنازير .. إلى الجحيم ولكن هذه الدقائق بدت له طويلة .. طويلة ولكنه أصبح يعيشها بكل كيانه .. أصبح للزمن معنى أكثر جدية. فلا داعي للقلق .. سينتظر هنا.. هنا. كل لحظة تفجر في أعماقه ألف ينبوع" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٦)، ليكتشف القارئ لاحقا أن هذا الانفجار ما هو في النهاية سوى إشارة رمزية إلى اندلاع الثورة التحريرية، أما الزمن فيحاول الروائي تقديم أوصافٍ عنه ويترك القارئ يُرَِّب أجزاءه، وينفذ إلى دلالاته، إذ يصفه بـ "الزمن العنيف المتمرّد"، "زمن الانفجار"، "زمن الفلاقي"، "الزمن الثائر" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٨، ٢٢، ٦٩، ١٥١) وغيرها من الأوصاف التي ترمز في مجملها إلى زمن الثورة التحريرية.

وبهذا المعنى فإن الروائي يخاطب في هذا النص قارئاً يُفترض فيه أن يكون ذا معرفة مسبقّة -ولو جزئياً- بالثورة التحريرية وزمانها، لذا لم يكن بحاجة إلى إيراد التاريخ أو الفترة الزمنية الدالة عليها، فهو هنا يُقرب القارئ من عالم يعرفه أو يحسه، أي يضع بين يديه التاريخ الذي لم يعد تاريخاً بالمعنى العلمي للكلمة (إبراهيم و آخرون، ٢٠٠٦، صفحة ٨)، جراء فعل التخيل الذي بقدر ما يلتصق بالمرجعي / الواقعي يعدّ مفارقاً له، لأن "العوالم التخيلية لا تكتسي وجودها إلا بمدى إحالتها على المرجعي الحقيقي من جهة، والقدرة على الانفصال عنه من جهة ثانية". (شقرن، ٢٠٢٣، صفحة ١٨٤)

ويُسندُ الروائي محمد مفلاح في هذه الرواية أدواراً تاريخية إلى شخصيات مُتخيَّلة؛ تتحرك في فضاء معلوم يمكن التثبت من وجوده على غرار دوار دار بن عبد الله، دوار الشوالة، حي سيدي عابد، ضريح سيدي يحيى، حي القراية، غابة "الزنين"، وكلها مُسمَّيات لأماكن حقيقية توجد بولاية غليزان. ومع ذلك فإن للمكان في النص الروائي منطقته ونظامه الخاص الذي به يختلف عما هو عليه في الواقع، كون أن التخيل عموماً هو مفارق للواقع وإن حاكاه. (القاضي و آخرون، معجم السرديات، ٢٠١٠، صفحة ٧٥).

وتضمنت الرواية إشارات كثيرة تُوطّدُ العلاقة بين المُتخيَّل والمرجعي / التاريخي، فيالعودة إلى الثورة انطلاقاً مما وصلنا عنها كتاباً ومُشافهةً نجد أنها استندت إلى الحماسة الدينية في جانب منها بدليل أنها استعارت مفردات دينية من قبيل الجهاد والشهادة والتكبير أثناء مباشرة القتال، وإطلاق لفظ الكفار على المستعمرين، هذه الجزئية المتعلقة بالبعد الديني للثورة لم يُغفلها محمد مفلاح، ووُظِّفَها توظيفاً جمالياً، إذ يُخبرنا السارد أنه عندما دوى الانفجار في سماء مدينة غليزان: "قَفَرَ الشيخ صالح وصاح بأعلى صوته - الله أكبر .. الله أكبر." (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٧) فرغم أن الشيخ صالح لم تكن له علاقة مباشرة

بالثورة، إلا أن دلالة التكبير هنا هي الإيذان بانسلاخ الثورة التحريرية وانطلاق الجهاد في سبيل الله والوطن ضد الكافر المحتل. ولعل ما يُعزّز الفكرة أكثر هو أن الروائي جعل من "سي عدة الطالب" الحافظ لكتاب الله ومُدّرّس القرآن لأطفال القرية - قبل أن تمنعه السلطات الاستعمارية من التدريس - أول من التحق بالجهاد وأول شهيد يسقط في ساحة الوغى، وبالتالي إذا كان حضور عنصر الدين في الثورة له ما يعضّده من دلائل مرجعية مبنوثة في الكتابات التاريخية**** فإن ذلك إنما يؤكد على أن الرواية "وإن بدّت لنا خطابا تخييليا، لا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعا تاما". (القاضي، الرواية والتاريخ: دراسات في تخييل المرجعي، ٢٠٠٨، صفحة ١٢)

٢. في مواجهة السردية الفرنسية الاستعمارية:

يُوجّه الروائي محمد مفلح نصّه الوجهة التي يُريد، ولا غرابة في ذلك إذا كان "التخييل ضمن فن الرواية يتم في ضوء قناعات المؤلف ورؤيته الكونية" (القاضي، الرواية والتاريخ: دراسات في تخييل المرجعي، ٢٠٠٨، صفحة ١٨)، ومن آيات ذلك أن القنبلة توضع في "حانة" يرتادها العساكر بكثرة، واختيار المكان هنا لم يكن من عفو الخاطر بقدر ما كان مستمدا من قناعة مفادها أن المجاهدين لم يكونوا مجرمين ولا قطاع طرق مثلما وصفتهم السردية الفرنسية - الاستعمارية، كونهم لم يستهدفوا المدنيين بقدر ما استهدفوا العساكر وكل ما يرمز للاستعمار، هذا إلى جانب أن الحانة فضاء مغلق، مما يجعل القنبلة لا تخطئ الهدف المحدد، كما أن تفجير القنبلة في وضوح النهار وسط المدينة يدحض فكرة المستعمر الذي كان يزعم أن الثوار هم حفنة من المتمردين يُنقّذون عملياتهم تحت جناح الظلام ويعودون إلى جحورهم في الجبال. ثم أليس في كل هذا إشارة صريحة إلى العمليات الفدائية التي نفّذها مجاهدون جزائريون بغرض إسماع صوت الثورة الجزائرية حينها، ويمكن أن نسوق هنا أسماء على سبيل المثال لا الحصر، وهنّ المجاهدات البطلات: زهرة ظريف، جميلة بوحيرد، جميلة بوباشا، جميلة بوعزة، فضيلة عطية وغيرهن ممّن خُصنّ غمار أزقة مدينة الجزائر حاملات سلاّلا تحتضن قنابل تؤكد رفض استمرار عنجهية المحتل. (العربي بوست، ٢٠٢٤)

ويواصل مفلح تأكيد لفكرة أن الثوار إنما ثاروا لرد العنف الاستعماري الذي تجاوز الحدود، وليس لأنهم همّج وصعاليك. ويتجلى هذا في تصوير الشرور التي اقترفتها المستعمر قبل أن يُقرّر "حماد الفلاقي" الاضطلاع بمهمة وضع القنبلة في الحانة. يقول السارد: "سي عدة الطالب أخبره بأشياء كثيرة: "حرقوا كوخ العانترى بعدما ذبحوه في واد مينة

.. قتلوا عشرة رجال وامرأة في ضريح سيدي يحيى.. وثلاثة رجال من الشوالة.. أفرغوا مائة رصاصة في رأس الزرقاوي" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٠).

طبعاً لسنا بحاجة إلى تبرير الفكرة لأن كتب التاريخ تحفل بفضاعات الاستعمار وجرائمه منذ أن وطأت قدمه أرض الجزائر، ويكفي القول: "إن التاريخ لم يذكر أن دولة استعمارية استعملت من القوات العسكرية ما استعملته فرنسا عند احتلال الجزائر" (شريط، ٢٠٠٩، صفحة ٣٨٤) كما يذكر السارد ولو بشكل عَرَضِيّ حدثاً تاريخياً آخر تمثل في مجازر الثامن من ماي ١٩٤٥ التي راح ضحيتها ٤٥٠٠٠ شهيد، غير أن "حماد الفلاقي" - الشخصية الثورية المَخيَّلة - هو من يثار لشهداء سقطوا في مجازر وقعت فعلاً، فيلى جانب الإيهام الصريح بتماهي التاريخي والتخييلي نسجل أن "عنف المستعمر اللاحق" ما هو سوى رد عن "عنف المستعمر السابق". يقول "حماد الفلاقي" عَقِبَ انفجار القبلة: "هذا الانفجار انفجاري أنا.. يا شهداء الثامن من ماي دماؤكم لم تذهب هدرا.. سيسمع أهل سطيف وقالة وخراطة وكل مدينة وكل قرية ودوار في بلادي بهذا الانفجار.. انتهت خمارة ليون..". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٧)

وعليه يمكننا القول إن الثورة - كحدث رئيسي - في رواية "هموم الزمن الفلاقي" ارتحلت من ذاكرة الروائي محمد مفلاح كحدث تاريخي إلى نص سردي منحز تُؤطَّرُهُ رؤيته وفهمه لهذا الحدث، متوسِّلاً في ذلك الخيال كأداة قادرة على إتمام ما لم يذكره التاريخ؛ الذي غالباً ما يهتم بالتناجج والخلاصات في حين أن الخيال الروائي يبحث في الأسباب والكيفيات (الشامي، ٢٠٠٦، صفحة ١٣٥)، وكثيراً ما يتوقف عند التفاصيل والجزئيات.

IV. التشكيل السردى لِصُورَتِي المَجاهد/الشهيد والحَرَكي:

١. مركزية الشخصية الثورية المقاومة ونصاعة صورتها:

تستأثر شخصية "حماد الفلاقي" بدور البطولة، وتهمين على السرد، لأن الحدث يرتبط بها منذ البداية. فحماد هو الذي سيتكفل بوضع القبلة في الحانة. يُخاطب "سي عدة الطالب" قائلاً: "أنا الذي أضع هذه القبلة في خمارة (ليون). أعطني الصندوق" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٧)، لقد اتخذ قراره بعد أن اقتنع بجدوى ما سيُقدِّم عليه: "استطعت يا سي عدة أن تقنعني بالحركة في الاتجاه الصحيح. لقد قُلْتُ لي بحماس: أنت منا. مسحوق مثلنا. وأرضنا مغتصبة" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٨)؛ أي أن حماد لم يكن مدفوعاً ولا مرغماً على هذا الفعل، بل قام به بحض إرادته لأنه سَيِّم من حياة البؤس والشقاء التي طبعَت الزمن السابق للقبلة، يقول: "وضَحِكْتُ مسروراً بحياتي الجديدة.. دخلتُ في رحم الزمن الثاني.. زمني العنيف المتمرد" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٨)

إن ما سيقوم به حماد يندرج ضمن ردود الفعل العنيفة والفردية التي يقوم بها المستعمر وتنبؤ عن وضع فعلي من الهامشية القائمة داخل المجتمع الكولونيالي؛ كونه مجتمعاً ينشئ كتلة ضخمة من المنسيين والمتروكين لتكملة الحساب. (الشيخ، ٢٠٠٢، صفحة ٢٢١)

لقد أعلن انفجار القنبلة رمزياً عن اندلاع الثورة التحريرية التي هي في الأساس "نفي جذري للنظام [الاستعماري] القائم" (الشيخ، ٢٠٠٢، صفحة ٦)، كما أعاد الانفجار إذكاء روح المقاومة المتجذرة في كل جزائري. يقول حماد: "وطني لم يكن عقيماً.. كل يوم يغتسل بمياه واد (مينة).. وطني فارس مغامر (...). كل المنطقة اهتزت ورددت صرخة الثائر الذي أخرج سيفه" (مفلاح، ١٩٨٦، الصفحات ٩-١٠)

لكن هل البؤس والشقاء وحدهما جعلاً الجزائري يشور ضد الاستعمار؟ إن لم يكن كذلك فما هي الأسباب الحقيقية لهذا الانتفاض العنيف للثوار؟ قد نجد جزءاً من الإجابة عن هذا السؤال المهم، بالعودة إلى سيكولوجية الإنسان الجزائري الذي يتميز عموماً بـ "الألفة والنزوع إلى الانتفاض والرد الانفعالي [فضلاً عن] روح التصدي والثأر للكرامة". (عشراتي، ٢٠٠٧، صفحة ٢٦١)

تجتمع معظم هذه السمات النفسية في شخصية "حماد الفلاقي" الثائر، إذ يرسم لنا السارد بعضاً من جوانبها قبل الانتفاض؛ أي في الزمن الأول الذي كان فيه البطل رافضاً للإهانة وكل أشكال الاستغلال، حيث لم يستطع ابتلاع إهانة "المعلم بوزيد" صاحب المطعم الذي يشغل عنده غاسل صحن، فأوقفه عند حده، بعدما أن كان كل مرة يحاول إقناع نفسه بأنه: "لا بُدَّ من توفير لقمة الخبز للأولاد" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١١) كما لم يتمكن من الصبر على غلظة المعمّر "فانسا" مالك الحقل ورب العمل، فانتفض في وجهه: "كنت لا أرضى أن يشبني.. قلت له يوماً بلهجة حادة: - أأنا كلب؟.. تفوه.. أنت الكلب.. هذه الأرض ملك لأهل الدوار.. والقطعة الشمالية كانت لأبي عواد الفلاقي.. سرقته منه". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٥٤) صحيح أنه طرد من العمل جراء هذا الرد الانفعالي لكنه ثأر لكرامته، وأدرك أن الوضع سيبقى على ما هو عليه مادام الاستعمار على هذه الأرض: "منذ تلك اللحظة عرفتُ بأي لا شيء مادام المعمّر (فانسا) سيبدأ على هذه الأراضي الخصبة بل ما دام حيّاً في منطقتنا". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٥٤)

لعل ما فهمه "حماد" من تجربته تحت وطأة الاستعمار أن الخوف هو الذي جعل المستعمرين أسياداً على أرض المستعمرين، لذلك فإن انفجار القنبلة سيحطّم كل حواجز

الخوف الساكن في قلوب المستضعفين ويدفعهم إلى الثورة، لأنهم أدركوا مع الوقت أن تحرُّرهم يجب أن يتمَّ بالقوة، ولا يمكن أن يتمَّ إلا بالقوة. (فانون، ٢٠١٥، صفحة ٦٨)

لم يكن أمام "حماد الفلاقي" من حل آخر أمام هذا الوضع الاستعماري الذي يُشعره بالنفي - كونه مُستعمر - إلا القيام بعملية تفجير قبلية بحانة يربطها العساكر بكثرة، ومن ثمة الالتحاق بالثوار، لأن في ذلك إثباتا للوجود وتجاوزا لحالة النفي السابقة، فقد "كان للعنف آئيدٌ سمة الضرورة، وأكثر من ذلك، سمة الضرورة الحياتية التي يُطرح فيها السؤال عن الوجود أو اللا وجود". (الشيخ، ٢٠٠٢، صفحة ٢١٩) وهذا ما يتجلى في قول السارد مخاطبا "حماد الفلاقي": "العنف هو طريقك الوحيد، المنفذ الوحيد، الخلاص من عفونة الواقع الاستعماري". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٧٣)

ومن هنا كانت لحظة ميلاد جديدة للبطل؛ تحوّل من رجل يَكْبُد من أجل لقمة العيش إلى رجل يَكْبُد من أجل استرجاع الحرية والأرض المُغتَصَبَة وأكثر من ذلك استعادة الكرامة المرحوعة بمخالب المستعمر المتعجرف. يقول السارد مجسدا الشخصية الثورية النابذة لكل أشكال الخضوع والاستكانة: "الحياة بدون خبز وكرامة أحقر من الموت؟ مَنْ يرضى أن يعيش مجرد العيش كالحَيوان فهو نذل كبير ولا يستحق إلا بصقة كبيرة على وجهه، بصقة مشحونة بغضب كل الثوار". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٢٧)

لكن الميلاد الجديد الذي اقتضاه الزمن الثاني اللاحق للانفجار لن يكون إلا بالعنف وبالكثير من التضحيات؛ وأولها مفارقة الأهل؛ الزوجة والأبناء. يقول السارد: "تأمل حماد أطفاله وقال لهم: -كونوا رجالا .. أطيعوا أمكم .. ساعدوها وانتظروني .. سأعود في يوم مشمس". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٧٤) لم يَهْن على الشائر "حماد" ترك أهله لوحدهم لا مُعِيل لهم بعده إلا الشيخ "المهدي" زوج أخته خديجة الذي لم يكن قادرا حتى على إعالة أسرته الصغيرة. ولكن كل هذا لم يكن يساوي شيئا في نظر "حماد" أمام كرامته وأرضه، ووطنه، لذا عقد العزم على الارتقاء في أحضان الثورة بكل عنف: "سأنطلق كالعاصفة الهوجاء .. سأحطّم كل شيء .. في أعماقي تنمو الأشجار وتنمو .. سأسقيها بدمائي .. تُربتها جسدي. في عيني تكمن ثورة المحرومين.. آه يا سي عدا الطالب، أخيرا فقط، فتحت عيني على حقيقة كنت أجهلها" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٢) فحماد قبل الانفجار كان لا شيء في نظر الآخر المستعمر، مجرد مُستعمر بئس لا يصلح إلا للاستغلال، كان يعيش الاغتراب والنفي في أرضه وأرض أجداده، لكنه بعد الانفجار وحمله السلاح أصبح لكيانه وجود وحياته معنى ف"عندما يحمل المستعمر السلاح يخلق نفسه، لأنه يخلق تاريخه الخاص، ويُشَيء قدره عندما يصبح كائنا تاريخيا" (الشيخ، ٢٠٠٢، صفحة ٢٢٢)، وهو في سبيل

أن يكون له وجود مستعد للتضحية بنفسه، لأن المستعمر "لا يريد أن يعيش بقدر ما يريد أن ينتصر" (فانون، ٢٠١٥، صفحة ٣٢)، ولعل هذا ما جعل حماد يُقَدِّم بشجاعة على قتال المستعمرين وأذناهم من الخونة إلى أن سقط شهيدا مثلما كان يتمنى دائما، فقد جاء على لسانه: "أريد أن يصبح حماد الفلاقي المُعَدِّم، حماد عاشق النجمة والهلال، سمادا لكل أشجار الوطن". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٦)

أما "سي عدة الطالب" -الذي يُمثِّل أيضا الشخصية الثورية- فقد كان هو من زرع بذرة الثورة في قلب "حماد الفلاقي"، التحق بالمجاهدين بعد حادثة انتحار خطيبته "محبوبة" عقب اغتصابها من قبل "جانو" ابن المَعْمَر "فانسا"؛ الذي كانت تشتغل في بيته. و"محبوبة" هنا هي رمز لكل امرأة جزائرية حرة رفضت أن تعيش بسمعة ملطخة بالعار رغم أن الذنب ليس ذنبها إنما كانت ضحية لبشاعة الاستعمار ووحشيته. كما ترمز أيضا للأرض التي اغتصبها المستعمر رغم مقاومة أهلها الشرسة التي لم تبدأ طيلة فترة الاحتلال سواء بالسلاح أو برفض الاندماج أو بالكفاح السياسي والثقافي. لم يهضم "سي عدة" الأمر وقرر الثأر لشرف "محبوبة" الذي هو شرفه وشرف الأرض التي دافع عنها إلى حين استشهاده.

كما لم تُغفل الرواية الدور الكبير الذي قام به جنود الخفاء خلال الثورة التحريرية في صورة "سليمان الفحام"، إذ ورغم ظهوره العَرَضِيَّ في الحُكِّي إلا أن دوره كان محوريا، كونه "المسؤول عن تجنيد أهل المنطقة" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٠٨)؛ فهو الذي توسَّط لدى قيادة الثورة لِتُجَنِّد "حماد الفلاقي" (و"سعدية" ابنة القايد لاحقا)، كما اضطلع بمهمة مساعدة عائلات المجاهدين بتكليف من القيادة، ويتجسد هذا في قوله لحماد الفلاقي عَقِبَ تَجَنُّدِهِ: "لا تَحْمِلْ هَمَّ الأطفال ما دُمنا هنا" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٠٩)، وفي موضع آخر: "كُنْ مُطْمَئِنِّئًا .. سأهتم بالشيخ المهدي وعائلته" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١١٠)، مما يوحي أن العمل الثوري لم يكن عشوائيا بل كان يخضع لتنظيم مُحْكَمٍ يجعل لكل مجاهد دورا منوطا به ومهمة عليه القيام بها على أكمل وجه، إلا أن اختلافهم في المهام لم يمنعهم من الاجتماع على كره الاستعمار وعملائه.

وَيُنَوِّغُ الروائي نماذجه الثورية، فيسوق لنا نموذجا آخر مختلفا، وهو نموذج "سعدية" ابنة القايد "موسى" التي سَيِّمَتْ من زوجها "جلول" الحُرَكِي ومن والدها المتسلط على المستضعفين فقَرَّرَتْ هي الأخرى الالتحاق بالجبل، تَحَيَّنَتْ الفرصة وهربت من بيت زوجها. وعنهما يقول السارد: "ستحمل السلاح وتقاتل الأعداء. ستبدأ بزوجها الحُرَكِي وأبيها الخائن .. من أجل أن يتسم الأطفال وترغد النساء ويحرث الفلاحون أراضيهم الخصبة". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٤٨)

إن لـ "سعدية" دوافع مختلفة تماماً عن تلك التي أدت بـ "حماد الفلاقي" و "سي عدة الطالب" إلى الانتفاض، والعجوز "المهدي" إلى التحمُّس لولا العجز، فظروفها المادية كانت أفضل لأن والدها القايد "موسى" لديه أراضي واسعة، وتربطه علاقات وطيدة مع المستعمر وكذلك زوجها "جلول" الحزكي كان صديقاً للضابط الفرنسي "العين الزرقاء" ويها به كل سكان القرية. يترك السارد "سعدية" تشرح لنا دوافعها فتقول: "كُرِّهْتُهم.. أي انتهى، انهار تماماً أصبح متعلقاً بجلول الحزكي .. وهذا باع نفسه للعساكر، كالكلب يتناول الخمر ويلهث وراء أسياده وكل يوم يلاحق أبناء منطقته (...). لهذا هربت.. قررتُ أن أعيش في الجبل الأخضر". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٢٢) لقد انتصرت لذاتها التواقية إلى الحرية وتخلّصت من عفونة وسطها العائلي الذي باع الكرامة والشرف واشترى المهانة والعار.

ولطالما كان الشوار مُلهمين لغيرهم من أهل الدوار ومؤثرين في الكثير منهم؛ كما هو الحال مع "المهدي" الذي تمنى لو أشعق جسدته المحرم على الالتحاق بالجبل الأخضر. لقد ظل يحلم بالحياة بين أدغاله ولكن زمن الانفجار حلَّ بعد أن أصبح المهدي شيخاً هزيراً ومريضاً. يقول السارد: "آه .. لو كان شاباً قوياً لركض الآن إلى هناك. ينضم إلى صف الثائرين على الأعداء، على الفقر والظلم والمعمر "فانسا". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٢٢)، لكنه رغم عجزه ظلَّ مؤمناً بأن الثورة ستنتصر في النهاية، وأن الأرض ستعود لأصحابها مهما طال الزمن، وينعم ابنه محمد بحياة كريمة، ينجح في المدرسة بدل رعي أغنام القايد "موسى الجواج" أو العمل في حقول المعمر "فانسا". يقبض السارد على هذه اللحظة فيقول: "تأمل كَفِّه لحظة ثم لَشِّم التراب. الثورة ستنتصر ويغادر فانسا الجزائر. لا، يتمنى أن يراه مقتولاً كالكلب، سيقف هو، وقتذاك بين المتقيين حول جثة المعمر ويقول لهم: - ألم أقل لكم بأنه سيموت وتصبح الأرض لنا.. سننعم بترابنا الذهبي...". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٢٣)

حتى الطفل "محمد" ابن الشيخ "المهدي" -من زوجته الثانية خديجة أخت حماد- كان يُمَيِّ النفس بالالتحاق بالمجاهدين في الجبل الأخضر ولم يعد يرغب في الذهاب إلى المدرسة بعدما أهانه المعلم اليهودي أمام زملائه وسخر من فقره، ومنذ تلك اللحظة سكنه هاجس الصعود إلى الجبل؛ حيث يربط حاله "حماد الفلاقي"، فهو لم يعد يرى نفسه ذلك الطفل الصغير الذي يتوجب عليه الذهاب إلى المدرسة للتعلم، إذ يقول مخاطباً ذاته خطاباً طفولياً حالماً وهو واقف أمام الكوخ ماداً بصره إلى الجبل الأخضر: "كبرت عن الدراسة ورعي الأغنام.. أريدُ أن أكون مجاهداً مثلك يا خالي، ولا أترك جائعاً أو عارياً في كل المنطقة .. سيفرح بي المساكين وأمي ستزغرد سعيدة بولدها المجاهد". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٦٩)

هكذا وقف الجزائريون جميعا إلى جانب ثورتهم؛ صغارا وكبارا، رجالا ونساءً، فقراء وميسورين... قاوموا الاستعمار ورفضوا السكوت عن ممارساته الشنيعة، لذا جاءت أصواتهم قوية وصرخاتهم مسموعة، ومن ثم كانت الشخصية الثورية في الرواية هي شخصية تتسم بالشجاعة والتضحية، مُؤثِّرة في غيرها، تَوَاقية إلى الحرية، رافضة للاستغلال، مُتَبَرِّغة من الحُرِّكي والحَوَّة، مُجاهد في سِرِّيَّة، وتحلم بغد مشرق.

٢. هامشية شخصية "الحُرِّكي": قتامة الصورة ومُسَوِّغات "النبد"

تعد شخصية "جلول الكلبي" ثاني أهم شخصية في الرواية، بعد شخصية "حماد الفلاقي" لا من حيث القيمة الرمزية المرجعية وإنما من حيث الحضور، كونها تمثل العنصر المعارض في القصة وأحد أطراف الصراع الذي يُتَنَزَّل في هذه الرواية بين طرفين كلاهما مُسْتَعَمَر: الأول يبذل جَهْدَ استطاعته للتخلص من رِنْقَةِ الاستعمار، والثاني يُسَهِّم في إطالة عمر الاستعمار، ويجسد أحد رموزه، ويعارض كل عمل من شأنه الإطاحة بسَيِّده ولي نعمته، حتى ولو كان على حساب كرامته وأهله.

إن تجنُّد "جلول الكلبي" كحُرِّكي في صفوف الجيش الفرنسي لم يتوقعه أكثر الناس قربا منه، في صورة "حماد الفلاقي" الذي جمعته به صداقة طويلة، مما جعله لا يتجرع الأمر بسهولة: "في المدينة لما أخبرني صديقي سي عدة الطالب أنك أصبحت من (الحُرِّكة) تمزَّق قلبي ولم أتم مدة أيام طويلة". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٥٠) لم يتقبل حماد فكرة أن يكون صديقه في الصف الآخر؛ صف العدو، وذلك بحكم صداقتهم الطويلة التي جعلته يعرفه جيدا ولم يهن عليه أن يضل صاحبه الطريق، لذا أبقى باب التوبة مفتوحا أمامه إلى وقت متأخر جدا من زمن الثورة. ولأن نهايته ستكون على يد "حماد الفلاقي" كان لزاما على هذا الأخير أن يخبرنا رفقة السارد عن التصرفات التي أفضت في النهاية إلى تصفيته. فصورة "الحُرِّكي" لا تتشكَّل في ذهن القارئ إلا من خلال ما يقوله عنه السارد أولا ومُقرِّبوه ثانيا؛ وهم: أخته مريم، زوجته سعدية، وخاصة صديقه حماد الذي يُسَهِّم بشكل كبير في تشكيل صورته.

يتساءل "حماد الفلاقي" في الصفحات الأولى من الرواية: "جلول الكلبي كيف أصبح منهم؟ حُرِّكي نذل.. آه يا جلول الكلبي القذر خُنتَ ثِقَّتْنَا. خَدَعْتْنَا في زمن الشدة" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٣) فمن خلال هذه الكلمات التي تأتي والحكي لا يزال في بدايته، تبدأ معالم شخصية "الحُرِّكي" في التشكُّل لدى القارئ: نذل/ قذر/ خائن/ خداع!.

وستتعرف على مدار أحداث هذه القصة على سبب إطلاق الأوصاف سابقة الذكر على الحزكي. في الزمن الأول السابق لانخراط "جلول" في صفوف الجيش الفرنسي، كان هذا الأخير مجرد "خمّاس" في ضيعة القايد "موسى الجواج"، أحبّ ابنته سعدية، فطلب يدها منه. لكن سيّده ضحك عليه حتى دمعت عيناه. "خمّاس" يُفكر في الزواج من ابنة القايد موسى صاحب السلطة والجاه؟! أمرٌ لم يخطر على بال القايد أبداً. ضحك عليه ثم طرده من العمل في حقوله الواسعة.

أحسن "جلول" بإهانة كبيرة، وهو الرجل الفقير المُعْدَم، فرأى أن الطريق الأقصر لبلوغ غايته ونيل رضا القايد "موسى" وقبوله بمصاهرته هو الانضمام إلى فرنسا بشكل من الأشكال. فكان له ما أراد. واعتباراً من هذه اللحظة يشرع "جلول" في كتابة فصل جديد من حياته، يختلف كل الاختلاف عمّا سبق. إنه زمنه الثاني؛ زمن "الذل" و"الهوان"، يتعجب "حماد الفلاقي" من الوضع الجديد لصديقه السابق: "تركتك بطلاً وحين عدت من المدينة وجدتك نذلاً، كلباً يتعقّب خطوات سيده القبطان". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٥٣)

إنه زمن الثورة الذي حمل كل التناقضات وأبان عن معادن الرجال الذين اختار بعضهم الطريق السهل ولو على حساب ضمائرهم وأهلهم وإخوانهم، فتلبّسوا بلبوس "الدناءة" التي لم ينتظرها "حماد" من "جلول" في هذا الزمن الثائر، فراح يُعَاتِبُهُ: "أنت أمام المد الثوري اختبأت تحت اللباس الفرنسي ذي اللون القاتم لتحمي نفسك وتنعم هادي البال بِخُبْرَةِ استعمارية معجونة من عرق البؤساء ودماء الشهداء". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٥٣) دَفَعَتْهُ أَنَانِيَتُهُ إلى بيع نفسه للشيطان الاستعماري من أجل الظفر بـ "سعدية"؛ الفتاة التي ستفر منه لاحقاً وتتمنى قتله. وسمحت له وضاعته قبول وظيفة سَتَجِيرُهُ على اقتراف الشر طوعاً أو كرهاً. ألم يكن هو من أشبع صديقه "حماد" ضرباً في المركز العسكري بالقرية؟ حتى يستعيد بعضاً من كرامة صِهره القايد "موسى الجواج" المَهَان من قِبَل "حماد" المدافع عن شرف أخته "خديجة" التي حاول القايد "موسى" التحرش بها.

يقول "حماد الفلاقي" مستحضراً صديقه السابق: "سمعْتُ (...) بأنك أهملت والدَيْكَ.. كنت تضرب أمك وتهدد أباك بالقتل". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٥٠) تؤكد أخته "مریم" العجوز زوجة الشيخ "المهدي" ما نقله حماد، عندما تتبرأ منه أمام أهل الدوار قائلة: "أنا لسْتُ أخته... لسْتُ أخت مغضوب الوالدين". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٤٢) تذهب إليه في بيته بالقرية لِتُسَمِعَهُ ما كان ينبغي أن يسمعه لعلهُ يشوب إلى رشده "لقد قضيت على نفسك وعلى شرف العائلة.. بَعْتُ أصلك وكل حياتك من أجل لقمة خبز وبذلة عسكرية وحلم ضائع.. كل الناس يكرهونك، يريدون قتلك وسط ساحة القرية وأنت

متعنت". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٤٥) لكن الذي حدث أن "جلول" دفعها بعنف، فسقطت على ظهرها وارطم قفاها بحافة الرصيف فلفظت أنفاسها الأخيرة.

أما زوجته "سعدية" ابنة القايد "موسى الجواج" فلم تَسْتَسِغْ من البداية فكرة الزواج منه كونه حَزَكِيًّا وُسْمَعَتِه سيئة جدا في القرية. قالت لوالدها موسى عندما جاءها بـ "جلول" الحَزَكِي خاطباً: "إنه حَزَكِي يا أبي.. حَزَكِي وكل الناس يكرهونه" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٦١) حاول والدها إقناعها ولمَّا لاحظ عدم اقتناعها أجبرها على الزواج منه؛ فلا يمكن لأي مخلوق أن يقف ضد مصالح القايد. يقول السارد: "ومنذ دَخَلْتُ بيت جلول الحَزَكِي وهي تحلم أن تحدث معجزة ما فتنقذها من وحل الحَزَكِي" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١١٧) إلى أن خطرت ببالها فكرة مفادها أن الخلاص من الحَزَكِي لن يكون إلا بالهروب إلى "الجبيل الأخضر" والالتحاق بالمجاهدين، تَحَيَّثَ الفرصة المناسبة ونَفَّذَت ما دار بخلدها. هناك في الجبل التحقت بـ "حماد الفلاقي" الذي كان يتمنى لو أنها بقيت مع زوجها في القرية لتكون عينا للثورة أفضل من مغامرتها صوب الجبل. لكنها أجابته شارحة له وضعها: "لا يمكن أن تفهم وضعيتي إلا إذا كنت في وضعي كامرأة.. من تقبل أن تعيش مع خنزير نتن؟ رائحته كل يوم تزداد عُفُونَة. كرهته يا حماد". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٤٩) بل وارتأت أن قتله واجبٌ يجب أدائه: "سأقتله.. لا تحرمني من هذا الواجب أو على الأقل دعني أرافقك". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٥٢)

كما يَصِلُنَا أيضا ظلم "الحَزَكِي" لإخوانه من أهل القرية، بصوت أحد الباعة المتجولين: "قَهْرُنَا الْوَحْشُ.. كَدَّرَ حَيَاتُنَا" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٤٣)؛ في غيابه دائما كان الناس يُرَدِّدون "لن يكون جلول إلا لقيطاً قذراً" (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٢٠)، وفي حضرته كانوا يتجنبونه اتقاءً لشوره التي لم تستثن أحدا؛ بما فيهم صهره القايد "موسى الجواج" بعد أن دارت الدوائر على هذا الأخير، وأصبح من الضعف بمكان.

إن هذه الأوصاف مُجْتَمعة تجعل القارئ يُكُونُ صورة عن الحَزَكِي، بدءاً من السبب التافه الذي تجنَّد من أجله في صفوف العدو، مروراً بالدناءة التي طبعت شخصيته، وصولاً إلى الأذى الذي تسبب فيه لبني جلدته، لهذا عُدَّ "الحَزَكِي" خائناً من الدرجة القصوى، كانت الثورة تحكم عليه بالإعدام" (مرتاض، ٢٠٠١، صفحة ٤٣)، لاسيما بعد أن أصبح هؤلاء الحَزَكِي يُشَكَّلُون خطراً على الثورة، كونهم "كانوا يساعدون الجيش الاستعماري في تشديد الحراسة الخائفة على حَزَكِيَّة المجاهدين والفدائيين والمناضلين (...) وقد تسببوا في مقتل كثير من المناضلين" (مرتاض، ٢٠٠١، صفحة ٤٣)، لأنهم استُخْدِمُوا أيضا في تعذيب إخوانهم الجزائريين، وكانوا يتلذذون في تنفيذ هذه المهام القذرة، مثلما ورد في شهادات

مجاهدين****، ورغم ذلك سَعَتْ الثورة جاهدة إلى استقطاب هؤلاء إلى صفها، لكن عندما ازداد بطشهم "تصدّت الثورة لمحاربتهم وتصفية الغلاة منهم". (بوعزيز، ٢٠٠٩، صفحة ١٧١)

ومن خلال الصورة التي رسمها الروائي محمد مفلح لشخصية "جلول" الحركي، يمكننا إدراجه ضمن صنف "الحركي المَعَالين"*****، فكيف تعامل معهم الثوار في الرواية؟ الإجابة تكشفها لنا النهاية، إذ سنعرف أن الحركي ورغم تجبّره وظلمه وإذابته التي طالت الجميع إلا أن الثورة ممثلة في "سي عدة الطالب" و"حماد الفلاقي" و"سليمان الفحام" وغيرهم ظلت متمسكة بأمل توبته وعودته إلى جادة الصواب. إلا أنه لمّا تأكد لديهم أنه أصبح خطرا على الثورة نفسها تقرر تصفيته، فتسلل كل من "حماد الفلاقي" و"سليمان الفحام" ليلا إلى بيته في القرية فوجداه يغطّ في نوم عميق، عارِ تماما ورائحة الخمر تفوح داخل غرفته، فكانت نهايته ذبحا على يدي "حماد"، ولما حاول تَرْجِيْهِمَا واستعطافهما في اللحظات الأخيرة من حياته أجابه "سليمان الفحام" نيابة عن "حماد" -الذي بقي صامتا- وعن كل الثوار: "لا رحمة لمن لم يرحم الناس. حياتك خطر على المجاهدين والشعب" (مفلح، ١٩٨٦، صفحة ١٨٠). نَقَدْ فيه "حماد الفلاقي" حُكْم الثورة؛ وحينها يخبرنا السارد أن حماد ظلّ مُنْحِنِيا على الجثة قبل أن ينهض حزينا. وقال متأسفاً: "كم انتظرت. تمثّيتُ أن يَفِرَّ من الجيش الفرنسي ويلتحق بنا لأغفر له كل أخطائه ولكنه كان عنيدا". (مفلح، ١٩٨٦، صفحة ١٨١)

وبعد نهاية المهمة وفرارهما أطلق أحد الحراس الفرنسيين المرابطين في مداخل القرية رصاصا كثيفا بعد رفضهما التوقف والإذعان لأوامره فأصاب "حماد"، لكنه رفض الاستسلام وجاهد نفسه حتى لا يسقط إلى غاية بلوغه شجرة البلوط المطلة على الدوار وهناك لفظ أنفاسه الأخيرة على مرآى ومسمع مرافقه "سليمان الفحام"، لِيَكُنْ بذلك هذا الأخير شاهدا على استشهاد "حماد الفلاقي".

وإذا ما التفتنا إلى صورة "القايد" وجدناها لا تختلف كثيرا عن صورة "الحركي" في هذه الرواية، إذ اتَّسَمَتْ شخصية القايد "موسى الجواج" هو الآخر بالوَضَاعَة؛ من التملُّق للمستعمرين والتودُّدِ إِلَيْهِمْ، إلى احتقار إخوانه من الجزائريين واستغلالهم أبشع استغلال في حقوله الشاسعة. يقول عنه السارد: "إنه لا يُؤْذِي الناس بل يمتصُّ دماء أبناء الدواوير. وإذا جَقَّتْ أجسامهم من الدماء يدفعهم للسلطة العسكرية" (مفلح، ١٩٨٦، صفحة ٢٩) فالشَّرُّ الذي اقترفه القايد "موسى الجواج" لم يكن تَأْفِهًا أبدا، يُلَخِّصُهُ السارد فيقول: "إيه يا أيها السيد المَتَجَبَّرُ كم سَجَنْتُ من رجل في هذه المنطقة؟ كم شَرَّدْتُ من عائلة بعدما

استوليت على أراضيها؟". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ٣٣) ولم يتوقف "القايد" عند هذا الحد، بل راح يتبني خطاب المستعمر ومفرداته، واصفا المجاهدين بالمتمردين، والمستعمرين بالأسياء، ويمكننا أن نلتبس هذا في قوله: "الشياطين الذين تمردوا ضد قوة فرنسا الرهيبة (...) قتلوا القبطان.. قتلوا سيدهم.. ماذا بقي لنا إذا مات الرجل القوي؟ (...) أتدري [يا عزوز] من قتل العين الزرقاء كما يسميه الصعاليك؟ (...) حماد الفلاقي هو المجرم الكبير ورأس المتمردين في هذه المنطقة". (مفلاح، ١٩٨٦، صفحة ١٠١، ١٥٦، ١٥٧) ولأن الجزء من جنس العمل فـ"موسى الجواج" لم يفقد أهله وشرفه فحسب، إنما فقد عقله في النهاية. وفي المحصلة، جمعت شخصيته بين الجشع والانتهازية والحقارة والخيانة؛ وهي صفات يلتقي في أغلبها مع الحزكي.

إذن يتبين لنا مما سبق ذكره أن المتيخل السردى لمحمد مفلاح يلامس الواقعي/ التاريخي رغم طابعه التخيلي، لأن الكثير من تفاصيله تتقاطع مع ما أورده الكتب التاريخية من جهة، أو ما تناقلته الذاكرة الجمعية لاحقا انطلاقا من شهادات من عاشوا المرحلة من جهة أخرى، وكلاهما يُجمع حول السمعة السيئة للحزكي والخونة عموماً خلال الثورة.

الخاتمة:

إن القارئ لرواية "هموم الزمن الفلاقي" سينتهي إلى قناعة مفادها أن الروائي محمد مفلاح روائي يمتلك الأداة، ويقبض بإحكام على خيوط اللعبة السردية، إذ يُوقِّفُ في بناء عالم مُتخيَّل يتماهى تماماً شبه كلي مع الواقعي / المرجعي، فينقل لنا الحدث الثوري من رصانة الحقيقي / التاريخي إلى مُتعة الجمالي / التخيلي، لأن هـم كروائي هو تحويل الماضي إلى عبْرَة تاريخية وتجربة للأمل، بالنظر للدروس التي قدّمتها الثورة التحريرية الجزائرية ليس للجزائري فحسب إنما للعالم أجمع. واستنادا إلى ما سبق تناوله بالتحليل، ربما جاز لنا تحصيل جملة من النتائج؛ أهمها:

➤ نسمح هذه الرواية مع المرحلة التي ظهرت فيها (منتصف الثمانينيات)، لأن بطولات الثورة التحريرية والصدى الذي خلّفته خلال ربع القرن الأول من الاستقلال، هو ما حدا بالروائي إلى التوقف عند إحدى صور النضال الشعبي والتغني بملحمته ضد احتلال استيطاني متوحش.

➤ تبين لنا أن مرجعية نص "هموم الزمن الفلاقي" هي مرجعية وطنية نشأ عليها الجزائري إما سماعاً أو قراءة، لذا لا يبدل القارئ -الجزائري تحديداً- جهدا أثناء القراءة ولا يُصدّم بوقائع تاريخية غير متوقعة إلا ما اقتضاه البناء الروائي نفسه. ويُهيمن الوطنيون (في

صورة حماد، عدة الطالب، سعدية، المهدي ...) على السرد لأن الثورة جعلتْهم مرئيين ومنحتهم صوتا كادوا يفقدونه طيلة فترة الاحتلال.

➤ جاءت الشخصية الثورية شاملة لكل فئات الشعب الجزائري؛ رجالا ونساء، شيوخا وأطفالا، فُقَرَاء وميسورين.

➤ نَوَّعَ الروائي من النماذج التي تجسد الشخصية الثورية، فاختار بعضها من طبقة ميسورة (شخصية سعدية ابنة القايد مثلا)، ليؤكد أن الانتفاض ضد الاستعمار لم يكن سببه الفقر فقط، على اعتبار أن المسألة الأساسية لا تكمن في الجوع، إنما في احتلال كان لابد أن يُطرد وأرض لابد أن تُسترجع، وكرامة ليس لها أن تُمتنَّهَن.

➤ لعل ما يشد الانتباه في هذه الرواية هو أن الصراع في البداية كان قائما بين ثلاثة أطراف، لكنه سرعان ما ينحصر ويتركزُ بين طرفين وهما: الوطنيون والحقَّوَّة. مع غياب شبه كلي للمستعمرين إلا ما ارتبط بالمعمر "فانسا" واستغلاله لأهل الدوار في الحقول، أو المرور العَرَضي للضابط الفرنسي "جورج" المعروف في المنطقة بـ "العين الزرقاء"، مما يوحي أن نقد النظام الاستعماري -عن طريق تصوير فظاعاته وأساليبه وهمجيته- لم ينل نصيبا أوفر في الرواية.

➤ ما نقرأه في هذه الرواية ليس الحدث الثوري إنما الشعور بهذا الحدث لدى الجزائريين، والتخييل يتيح لنا معرفة دواخل الشخصيات وأحاسيسها ورؤاها وهو ما لا يمكن أن نجده في كتب التاريخ، وهذا هو الذي أراد الروائي توصيله للأجيال بُغْيَةً إذكاء جذوة الوطنية لديها، مع ما يحمله ذلك من قِيَم إنسانية سامية كالتضحية، ومن صفات محمودة كالشجاعة والإقدام على ركوب المخاطر في سبيل غاية أسمى، والدفاع عن الشرف بكل قوة والإيمان بالذات الذي هو إيمان بالوطن في النهاية، وفي المقابل ذم "الخيانة" بكل أشكالها، لأنها سواء طال الزمن أم قصر تُفُضِي بصاحبها إلى عواقب غير محمودة، فنهاية "جلول" الحزكي في الرواية هي الإعدام ذبحا ونهاية القايد "موسى الجواج" هي الجنون.

➤ قِلَّةٌ هي الروايات التي تنتهي بموت أبطالها، و"هموم الزمن الفلاقي" تندرج ضمن هذه القِلَّة. إلا أن هذا الخيار الروائي نراه مُوقَّفاً في هذا النص تحديداً، لأن الروائي محمد مفلح أنهى نصّه باستشهاد البطل "حماد الفلاقي" لأنه يدرك أن الشهادة هي حياة في عقيدة المسلم، بل ومرتبة ليست ككل المراتب، ولن يجد أفضل من هذه النهاية لشخصيته الثورية. كما أن هذا الاستشهاد ولئن كان موتاً إلا أنه موتٌ مانعٌ للحياة، لتكون الرسالة "مات الشهيد ليحيي الوطن". أما الإبقاء على شخصية "سليمان الفحام" حيَّة فدلالتُه أن الثورة لم تَنْتَهِ باستشهاد مجاهد أو اثنين بل تواصلت إلى غاية طرد المستعمر واستعادة السيادة

الوطنية، لذلك سيواصل "سليمان الفحام" عمله في التجنيد والتعبئة ضد المستعمرين وأتباعهم.

➤ وفي الأخير، إن الخطاب الذي انتهجه محمد مفلح هو "خطاب الرموز"، فهو لا يتحدث عن المجاهد/ الشهيد، إنما يتحدث عن صورة هذه الشخصية الثورية في المخيال الجزائري كرمز لا بد أن يبقى مُشعّاً، ولا ينبغي أن ننسى يوماً أن كُلاً من المجاهد والشهيد كانا بمثابة الأسمت الذي شدّ أركان هذا الوطن إلى بعضه البعض. ومن ناحية أخرى، لا يتحدث عن الخوّة إنما عن حقارة فعل الخيانة ونذالة المُقَدِّمين عليه والنهاية التي تنتظرهم. فالرواية تُظهر أن عدد الوطنيين الراضين للاستعمار أكبر بكثير من عدد الخوّة المتواطئين معه، وإن كان لذلك من دلالة فإنها لا تنفك عن كون الخيانة سلوكاً معزولاً ولم تكن يوماً سلوكاً عاماً أو موقفاً كغيره من المواقف مثلما تحاول اليوم سرديّة أبناء الحزكي في فرنسا تمريره.

قائمة المراجع:

أحمد بنعمان. (٢٠١٥). سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية. الجزائر، الجزائر: دار النعمان. العربي بوست. (٢٠٢٤، ١٧). هذه قصة ثلاث فدائيات فجرن الفرنسيين بقتال يدوية. تاريخ الاسترداد ٢٠

١١، ٢٠٢٤، من [Arabicpost.net: https://n9.cl/rdvfw](https://n9.cl/rdvfw)

دليّة شقرون. (جوان ٣٠، ٢٠٢٣). المرجعي والتخييلي في رواية "حباً أو ميّتا" لحمد صالح بوعمراني. مجلة الخطاب، ١٨(٢).

سليمان الشيخ. (٢٠٠٢). الجزائر تحمل السلاح: دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة. (محمد حافظ الجمالي، المترجمون) الجزائر، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين. سليمان عشراقي. (٢٠٠٧). الشخصية الجزائرية : الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية. الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

عاشور شرفي. (٢٠٠٧). قاموس الثورة الجزائرية ١٩٥٤ - ١٩٦٢. (مختار عالم، المترجمون) الجزائر، الجزائر: دار القصة للنشر.

عبد الله إبراهيم، و آخرون. (٢٠٠٦). الرواية والتاريخ. الدوحة، قطر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث.

عبد الله شريط. (٢٠٠٩). الأعمال الكاملة. الجزائر، الجزائر: منشورات السهل.

عبد المالك مرتاض. (٢٠٠١). دليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية ١٩٥٤ - ١٩٦٢. الجزائر، الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر ١٩٥٤.

فرانز فانون. (٢٠١٥). معذبو الأرض (الإصدار ٢). (سامي الدروبي، و جمال الأتاسي، المترجمون) القاهرة، مصر : مدارات للأبحاث والنشر.

قالط حجي العنزي. (ماي/يوليو، ٢٠١٧). القص في التاريخ بين المرجعي والتخييلي. مجلة فكر الثقافية (١٩).
 محمد القاضي. (٢٠٠٨). الرواية والتاريخ: دراسات في تخيل المرجعي (الإصدار ١). تونس: دار المعرفة للنشر.
 محمد القاضي، و آخرون. (٢٠١٠). معجم السرديات (الإصدار ١). تونس: دار محمد علي.
 محمد مفلح. (١٩٨٦). هموم الزمن الفلاقي. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
 نضال الشمالي. (٢٠٠٦). الرواية والتاريخ: بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية (الإصدار ١).
 إريد، الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.
 يحي بوعزيز. (٢٠٠٩). الثورة في الولاية الثالثة: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (الإصدار طبعة خاصة). الجزائر، الجزائر: دار البصائر.

الهوامش:

*القايد (Caïd): هو وسيط جزائري بين الإدارة الفرنسية - الاستعمارية - والأهالي، مكلف من طرفها بتسيير بعض شؤون القبيلة، ويُختار من بين أولئك الذين خدموا فرنسا بإخلاص، بعضهم وصل إلى هذا المنصب فقط بناءً على الانتماء العائلي أو مراعاة للتقاليد أو بواسطة الرشوة. وكان هؤلاء القيايد يمثلون أبشع أنواع الإقطاعية الإدارية والزراعية. ينظر: عاشور شرقي، قاموس الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢)، تر: مختار عالم، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٧١. مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣، ص ص ٦١-٣٠٨ (الهامش).

**الحركي (Harki): هو كل جزائري حمل السلاح لمساعدة الفرنسيين؛ جيشًا ومخابرةً على ملاحقة إخوانه الوطنيين الجزائريين خلال الثورة التحريرية واضطهادهم أو قتلهم. ينظر: عبد المالك مرتاض، دليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية ١٩٥٤ - ١٩٦٢، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠١، ص ٤٣.

***الفلاقة (Fellaga): جمع فلاق وهي لفظة أصلها عربي، مأخوذة من الفلق، وهو الشطر، أي أن المجاهدين يفلقون الرؤوس، في مزعم الفرنسيين، وهذا استعمال مردود من الناحية التاريخية لأن المجاهدين لم يكونوا مجرمين ولا قطاع طرق. ينظر: عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص ٦٥.

****حول البعد الديني للثورة الجزائرية، راجع: سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح: دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، تر: محمد حافظ الجمالي، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٢، ص ٣٣٧ وما بعدها.

**** راجع: أحمد بن نعمان، جهاد الجزائر: حقائق التاريخ ومغالطات الجغرافيا، دار الأمة، الجزائر، ٢٠١٤، ص ص ١٩٩ - ٢٥٢.

***** أي أولئك الحزكي الذين تمادوا في إلحاق الضرر بإخوانهم الجزائريين، وبذلوا قُصارى جهدهم لإرضاء أسيادهم الفرنسيين - الاستعماريين، وأصبح ميئوسا من توبتهم.